

فضل النبي صلى الله عليه وسلم ووجوب اتباعه

ليست حاجة أهل الأرض إلى الرسل كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر ، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته ، ولا كحاجة العين إلى ضوئها والجسم إلى الطعام والشراب ، بل أعظم من ذلك وأشدُّ حاجةً من كل ما يُقدر ويخطر بالبال ؛ فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ، وهم السفراء بينه وبين عباده ، يدعونهم إلى دين الله ، ويبلغونهم رسالة الله ، ويهدونهم إلى صراطه المستقيم .

وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ)) [١] ، وقال الله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:١٠٧] . فبعثه الله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على الخلائق أجمعين ، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيه وتوقيره والقيام بأداء حقوقه ، وسد إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه ، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين ، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين .

أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فختم به الرسالة وهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة وفتح برسالته أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها ، وتألقت بها القلوب بعد شتاتها ، فأقام بها الملة العوجاء ، وأوضح بها المحجة البيضاء ، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره .

أرسله سبحانه على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) [٢] ، أرسله حين حُرِّفَ الكَلِمَ وبُدِّلَتِ الشَّرَائِعَ واستند كل قوم إلى أظلم آرائهم ، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم ، فهدى الله به الخلائق وأوضح به الطريق وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، قال الله تعالى : { قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الطلاق: ١٠-١١] فَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى ، وَأرشد به من الغي ، وجعله قسيم الجنة والنار ، وفرق ما بين الأبرار والفجار ، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته ، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته .

وامتحن به الخلائق في قبورهم ، فهم في القبور عنه مستولون وبه ممتحنون . فعن أنس رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوَلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، فَيُقَالُ : انظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبَدَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا ، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ ، فَيُقَالُ لَا دَرِيْتَ وَلَا تَلَيْتَ . ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ)) [٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالْآخَرُ النَّكِيرُ فَيَقُولَانِ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولَانِ قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا ، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ثُمَّ يُنَوِّرُ لَهُ فِيهِ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ ، فَيَقُولُ أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ ؟ فَيَقُولَانِ نَمْ كَنُومَةِ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ : سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ : قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ، فَيُقَالُ لِللَّارِضِ التَّمِي عَلَيْهِ ، فَتَلْتَمُّ عَلَيْهِ فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ)) [٤] .

وقد أمر الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن ، وقرن طاعته بطاعته ، وقرن بين مخالفته ومخالفته ، كما قرن بين اسمه واسمه ، قال ابن

عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : { وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ } [الشرح:٤] : لا أذكر إلا ذكرت معي ، وهذا كالتشهد والخطب والأذان يقال فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فلا يصحُّ الإسلام إلا بذكره والشهادة له بالرسالة ، وكذلك لا يصحُّ الأذان إلا بذكره والشهادة له بالرسالة ، ولا تصحُّ الصلاة إلا بذكره والشهادة له بالرسالة .

وقد حذر الله سبحانه من مخالفته أشد التحذير فقال : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النور:٦٣] ، وكذلك ألبس الله سبحانه الذلة والصغار لمن خالف أمره .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذُّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)) [٥]

وكما أن من خالفه وشاقه وعاداه هو الشقي الهالك ، فكذلك من أعرض عنه وعمّا جاء به واطمأن إلى غيره ورضي به بدلاً منه هو هالك أيضاً ، فالشقاء والضلال في الإعراض عنه وفي تكذيبه ، والهدى والفلاح في الإقبال على ما جاء به وتقديمه على كل ما سواه .

فالأقسام ثلاثة : المؤمن به ؛ وهو المتبع له المحبُّ له المقدم له على غيره ، والقسمان الآخران هما : المعادي له المنابذ له والمعرض عما جاء به . فالأول هو السعيد ، والآخران هما الهالكان [٦] .

إن عدَّ فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وذكر مناقبه وخصائصه وشمائله ومحاسنه أمرٌ تأنس به القلوب المؤمنة وتبتهج به النفوس الصادقة ، وتتعطر به المجالس الصالحة ، كيف لا !! وهو سيد ولد آدم ، وإمام الخلق كلهم ، وأحب عباد الله إليه ، فهو رسوله المصطفى وخليته المحتبى ، بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أدرك تمام الإدراك الرعيل الأول من هذه الأمة الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم فضل هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ومكانته ؛ ففدوه بأبائهم وأمهاتهم وأنفسهم ، وقدموا محبته على النفس والنفيس ، وبذلوا مهجهم وأوقاتهم وأموالهم في سبيل نصرته ، وعزروه ووقروه وقاموا بحقوقه على التمام والكمال ، فكانوا أحق الناس به وأولاهم بمرافقته وأهداهم سبيلاً في اتباعه ولزوم نهجه .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : ((من كان مستنأً فليستنَّ بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا خير هذه الأمة ، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونقل دينه ؛ فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم ، فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الهدى المستقيم ، والله ورب الكعبة)) .

وفي خضم غربة الدين وقلة المعرفة والدراية بهدي سيد الأنبياء والمرسلين نشأ في أوساط بعض المسلمين أمور غريبة ومحدثات عجيبة ، أراد بعضهم التعبير من خلالها عن محبته للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فاتخذوا يوم مولده عيداً ، ويوم هجرته إلى المدينة محتفلاً ، وليلة الإسراء به موسماً ، ونحو ذلك من الأيام ؛ فيجتمعون فيها على إنشاد القصائد وتلاوة المدائح وقراءة الأراجيز ، وهؤلاء وإن كان قصدهم بذلك إظهار محبة النبي صلى الله عليه وسلم وهو قصد حسن ، إلا أن إظهار محبته عليه الصلاة والسلام لا تصح إلا باتباعه ولزوم نهجه وترسُّم خطاه ، ولهذا لم يُنقل عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة المعتبرين شيء من هذه الأمور المحدثه .

والموفق من اتبع خطاهم ولزم نهجهم وسلك سبيلهم ، فهم أهدى أمة محمد صلى الله عليه وسلم عليه وسلم سبيلاً ، وأقومهم قيلاً ، وأحسنهم طريقاً ، ألحقنا الله وإياكم بهم ، وورزقنا متابعتهم وسلوك سبيلهم ، وجعلنا جميعاً من عباده المتقين .

ونسأله سبحانه أن يجعلنا من المتبعين له المؤمنين به ، وأن يحنينا على سنته ويتوفانا عليها ، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرة وتحت لوائه ، وأن يمنَّ علينا بشفاعته ، وأن يغفر لنا خطأنا وتقصيرنا ؛ إنه سبحانه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

[١] رواه الحاكم (٣٥/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني رحمه الله في (الصحيحة) (٤٩٠) .

[٢] رواه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه .

[٣] رواه البخاري (١٣٣٨) ومسلم (٢٨٧٠) .

[٤] رواه الترمذي (١٠٧١) وحسنه الألباني رحمه الله في (صحيح سنن الترمذي) (٨٥٦) .

[٥] رواه أحمد (٥٠/٢) ، وصححه الألباني رحمه الله في (صحيح الجامع) (٢٨٣١) .

[٦] انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠٠/١٩ - ١٠٥) .